محاضرات في الحجاج الفلسفي .
المستوى: السنة الاولى ماستر .
التخصص : فلسفة عربية اسلامية .
الاستاذ : عمور ميسوم .

المحاضرة الأولى :

مفاهيم أساسية في حقل الحجاج .

يستعمل مصطلح الحجاج ***L'argumentation*** في سياقات كثيرة و مختلفة مثل الفلسفة والسياسة والإعلام ..... الخ , و يحيل دائما إلى محاولة طرف ما التأثير في طرف آخر , بخصوص قضية أو رأي بغية الإقناع أو المناقشة أو الدحض أو التأييد , أو هو "كل منطوق موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها " كما يقول طه عبد الرحمان في كتابه اللسان والميزان , فالحجاج إذن هو وسيلة اقناعية تعتمد على اللغة تهدف إلى التأثير في الأخر أو تفنيد أرائه ولما لا تعديل سلوكه , و هناك من يعرفه بأنه دعم أو رفض أو مناقشة رأي أو أطروحة ما ، وله طرق منها الإقناع والاستمالة والمداولة .

ويجسد مفهوم الحجة ***l'argument*** النقطة المحورية في حقل الدراسات الحجاجية , فالحجة هي فكرة أو تركيبة من الأفكار تسمح بدعم أو دحض طرح ما . وتوجد نماذج كثيرة من الحجج مثل (الحجة المنطقية ، حجة السلطة ، حجة القيمة ، حجة الخبرة ،،،الخ) .

لقد عرف الحجاج كمبحث نظري في الفترة المعاصرة ازدهارا وامتدادا الى مجالات متعددة , وهذا راجع الى طبيعة الحياة المعاصرة التي اكتسحتها الثورة التواصلية والقفزات المعلوماتية

فضلا عن الجضور القوي فيها لصنوف كثيرة من الخطابات التي تستهدف تشكيل القناعات العامة والتأثير في المتلقين مثل الخطاب السياسي والديني والاشهاري والإعلامي .

إجمالا يمكن القول , إن الحجاج فعل استدلالي مندمج في اللغة الطبيعية يقوم على محاولة التدليل على درجة صحة أو مقبولية طرح ما بالنظر إلى طبيعة المتلقي و سياق الحوار.

البرهنة والحجاج :

إن تحديد طبيعة الحجاج لا يتأتى بالوجه الصحيح إلا بالتمييز بينه وبين مفهوم آخر متداول في مجال الاستدلال وهو البرهنة ***la démonstration***، وهذا التمييز تشترك فيه كل النظريات الحجاجية تقريبا من أرسطو حتى بيرلمان وديكرو .

إن البرهنة تعني إثبات أمر أو قضية بمقتضى قواعد المنطق الصوري الصارمة التي تستند إلى عدد من البديهيات , و لكن مع تطور البحث المنطقي المعاصر تحول مفهوم البرهنة إلى نوع من الحساب الرمزي ***calcul symbolique*** المستند إلى لغة رمزية صارمة يكون لكل رمز فيها معنى واحد فقط , وهذا التحول جعل البرهنة المنطقية تتجاهل كل إحالة إلى معاني أو أصول و أسس المبادئ المعتمدة **(محمود يعقوبي – أصول الخطاب الفلسفي – ص 5)**

فالبرهنة تعتمد على عملية فصل داخل اللغة أو الخطاب الإنساني بين ما هو استدلالي وما هو غير استدلالي ، وهذا عكس المقاربة الحجاجية للغة التي تقوم على مراعاة جميع جوانب الخطاب الإنساني وغاياته التي تتراوح بين الإلزام و الاستمالة ، فالحجاج يبحث عن منطق خاص داخل اللغة الطبيعية و ليس خارجها , و ينفتح على مختلف الممارسات الاستدلالية والفكرية و لا يقتصر على الجانب البرهاني الإلزامي فقط من عمل العقل .

و إذا كانت البرهنة ترتبط بما هو ضروري , فان من ميدان الحجاج هو الاحتمالي والممكن , ومن هنا قيمته في التفكير الفلسفي الذي يعتبر الحقيقة مجموعة من وجهات النظر المتفاوتة في القوة و الصلاحية

كما أن المقارنة بين اللغة الطبيعية في (الحجاج) وبين اللغة الرمزية في (البرهنة) توضح خصوصية الحجاج أكثر , فاللغة الرمزية تقوم على احترام صارم لمبدأ الهوية الذي يجعل الاستدلال تثبيتا صوريا لحقيقة أو هوية أولية , فالحدود أو الرموز في البرهنة تبقى محتفظة

بمعناها ووظيفتها من المقدمات إلى النتائج وإلا وقعنا في التناقض المرفوض منطقيا , على عكس الفعل الحجاجي الذي هو بناء تدريجي لموضوع غير محسوم فيه . فمثلا قد ينطلق ممارس الحجاج من معنى شائع عن الحرية أو العدالة الديمقراطية (المحاورات السقراطية و نصوص الفلاسفة بوجه عام) , ثم يحاول دحض أو تعديل أو تصحيح أو إثراء و توسيع هذا المعنى , ولذلك قال **ديكرو Dicrot** إن الحجاج بناء تدريجي للمفاهيم المتنازع حولها , أما البرهنة المنطقية الصورية فهي تثبيت صوري لحقائق معطاة بشكل أولي .

والبرهنة تطرح قضاياها أو حقائقها مستقلة عن سياقها الزماني و المكاني , فهي حقائق غير شخصية . (إن القانون المنطقي كما يرى المنطقي الألماني **جوتلوب فريجه Frege** صادق مهما كانت الأحوال حتى لو افترضنا عدم وجود إنسان أو عقل يفكر فيه فهو صادق في ذاته) , وهذا يختلف عن الحجاج الذي يتناول ميدان الممكن و المحتمل و يقوم على تبادل في وجهات النظر , فهو فعل حواري تداولي يهدف إلى التأثير في متلقي ما .
وفي البرهنة المنطقية الرمزية نهتم أساسا بالمستوى التركيبي من اللغة , أما في الحجاج فنحن نهتم بالمستويات الدلالية والتداولية للغة التي تتناول علاقة اللغة بالدلالات وبظروف الاستعمال وسياقاته . وفي حين تشترط البرهنة التصريح بكل مراحلها وخطواتها فان الحجاج يتميز بأنه إضماري لا يصرح بكل شيء , واذا كانت البرهنة صحيحة أو فاسدة , فان كل حجاج يستلزم حجاجا اخر في الاتجاه المعاكس وذلك لأنه يتناول ما هو ممكن و احتمالي .

ويمكننا إجمالا تلخيص اغلب الاختلافات بين البرهنة الصورية وبين الحجاج في الجدول التالي:

البرهنة المنطقية	الحجاج
الصورة	المضمون
الضرورة , صحيح او فاسد	الإمكان , كل حجاج يفترض حجاجا أخر في الاتجاه المعاكس
حقائق كلية ,غير شخصية .	وجهات نظر ، لها درجات من المقبولية
الإلزام	الإقناع و الاستمالة .
الحساب	التفكير ،(عقلي, سيكولوجي , إجتماعي)
الآلية	الحوار
الرموز , التصريح بكل شيء	اللغة الطبيعية , إضماري
وضعي علمي	فلسفي فكري
تكراري فارغ	إشكالي غير حاسم
المستوى التركيبي من اللغة	(يراعي مقتضى الحال وطبيعة المتلقي) . ومستويات اللغة (التركيب والمعنى والاستعمال)
اقرب إلى العلم.	اقرب إلى الفلسفة
تثبيت صوري للحقائق	بناء سلّمي متدرج للموضوع , وتحويل للدلالات

المحاضرة الثانية

تاريخية الحجاج

في البداية , يبدو لنا انه من الضروري من اجل إدراك جيد لفلسفة الحجاج أن نميز مبدئيا بين محورين ، تحرك بينهما الدرس الحجاجي الحديث بوجه عام و هما : **المحور النقدي و المحور التأسيسي** .

نقصد بالمحور النقدي محاولة الكثير من رواد البحث الحجاجي وأصحاب النظريات الحجاجية إبراز حالة الابتعاد التدريجي الذي أحدثه استحواذ الوضعيين les positivistes و الرياضيين على البحوث المنطقية في الفترة المعاصرة والحديثة (فريجه , راسل , بيانو , كارناب ...الخ) , أي الابتعاد التدريجي عن التفكير الطبيعي كما يمارسه الناس في مشاكلهم التي لا يمكن فصلها عن معطياتها الاجتماعية والنفسية , و بعبارة أخرى فالجانب النقدي يتضمن إبراز ما يمكن أن نسميه (مأزق الصورنة) .

إن تطور المنطق الحديث الذي ارتبط بمشاكل تتعلق بالاستنتاج الرياضي أدى إلى استبعاد جوانب مهمة من النشاط الفكري الإنساني لكونها لا تستجيب للشروط التي حددها المنطقيون المعاصرون .

و لعل أبرز هذه الشروط هو رفض النزعة النفسانية و الاستعاضة عن اللغة الطبيعية بنظام من الرموز الذي يحكمه مبدأ : **يجب أن يكون لكل رمز معنى ومعنى واحد فقط** , و الاستعاضة عن التفكير كنشاط يتحرك في فضاء من الدلالات و المعاني بحسابات رمزية مفرغة من أي معنى حدسي محتمل ,أي حسابات يمكن القيام بها بشكل ميكانيكي آلي و لا تفترض حتى وجود عقل أو ذهن إنساني يتعقلها و يفهمها أو يستوعبها .

وهذا قد يبدو ظاهريا – حسب رواد النظريات الحجاجية – انه تدقيق و ضبط للخطاب المنطقي , إلا انه يعبر حسبهم عن موقف **اختزالي** يضحي بحقيقة و ثراء التفكير الإنساني و بتعدد الاستعمالات الطبيعية للغة لصالح استعمال واحد .

مثال ذلك المقارنة التي يعقدها تقريبا كل فلاسفة الحجاج بين مرونة الروابط اللغوية وبين ثبات وصلابة الروابط المنطقية , فواو العطف على سبيل المثال تتضمن أكثر من استعمال طبيعي , فهي قد تفيد الربط الخالص كما قد تفيد الربط مع الترتيب الزمني , وهذا المعنى الأخير لا يسمح بالمبادلة بين طرفي العطف , في حين أن الاستعمال المنطقي الرمزي لرابط الوصل يفرض كشرط جوهري فيه قابلية التبديل بين طرفيه . و يكاد ينسحب هذا الحكم على اغلب الروابط المنطقية .

يقول **طه عبد الرحمان** " وكذا حكم **القلب في الاستلزام الصناعي** الذي يقضي بتغيير الرتبة فانك لا تجد متكلما يستوي عنده التقديم والتأخير فيما يبني عليه من الأقوال , بل إن القيام بذلك قد يفضي إلى إخراج مقصوده إلى نقيضه , وعلامة ذلك وجود علامات في اللسان تلزم بحفظ الرتبة فلولا الحاجة إلى الترتيب لما وقع التصريح به بواسطة هذه الحروف عند الخوف من اللبس وإلا فقد يكتفي المتكلم بإفادته عن طريق الإضمار أو باستعمال حروف تفيد في الظاهر مطلق الجمع لكن سياقها يدل على انه جمع مع ترتيب" **(طه عبد الرحمان – اللسان والميزان – ص 40)**

ويقدم لنا "جونسون رالف " وهو من ابرز المدافعين عن فكرة الحجاج واقعة شخصية طريفة لكنها مليئة بالدلالات في موضوع المقارنة بين المنطق الرمزي و الحجاج . فقد طرح عليه احد طلبته في الجامعة , سؤالا بعد نهاية أحد دروس المنطق الرياضي قائلا : إذا كان هذا درسا في المنطق , فكيف كيف يمكن لهذا المقياس أن يساعدني في تكوين موقف منطقي من الحرب في الفيتنام ؟

وقد جسد هذا السؤال نقطة تحول في مسار هذا الباحث الذي انصرف إلى الاهتمام بالجوانب غير الصورية في الممارسة الاستدلالية و محاولة تنزيل واستثمار البحث المنطقي في معالجة و مناقشة المشاكل العينية التي يعيشها الإنسان المعاصر .

وهكذا نجد أن احد أبرز مبررات إعادة بعث الاهتمام النظري بالممارسة الحجاجية في الفترة المعاصرة هو حالة التعارض أو عدم الانسجام بين تطورات البحث المنطقي الذي استحوذت عليه نزعة صورانية خالصة , و بين تعقيدات الحياة و الثقافة المعاصرة و خطاباتها المتعددة القائمة على التعبئة الإعلامية و التغليط السياسي والاشهاري ، وذلك لان هناك جوانب من الممارسة الاستدلالية لا تستطيع المقاربة الصورية الخالصة التي يعتمدها المنطق الرمزي المعاصر دراستها لأنها لا تخضع لشروطها المنهجية , وقد لاحظ أكثر من باحث في تاريخ المنطق أن **الصورنة** La formalisation ومقتضياتها المنهجية تستبعد كل ما لا يخضع لشروطها . لاحظ هذا مثلا كل من ادموند غوبلو Goblot في كتابه المنطق traité de logique و روبير بلانشي Blanché في كتابه العقل والخطاب Raison et discours .

هذا كان عن الجانب النقدي في الدرس الحجاجي المعاصر , أما الجانب التأسيسي فيتضمن اجتهادات رواد الحجاج في بناء نظريات خاصة بالمفاهيم الأساسية في الحقل الحجاجي كالحجة و الدليل و الإقناع و التقنيات الحجاجية ....الخ . مثل نظريات **بيرلمان وتولمان و ديكرو** التي تستند كل واحدة منها على جانب معين من جوانب الممارسة الحجاجية وتقترح منظومة من المفاهيم النظرية التي تبني بها رؤيتها لطبيعة الفعل الحجاجي وأساليب تمييزه وتقييمه

نبذة تاريخية عن الحجاج :

هناك تركيز من طرف رواد فلسفة الحجاج على الأبعاد التاريخية للحجاج في الثقافة الإنسانية في جميع مراحلها (الثقافة القديمة ، العصور الوسطى ، الفترة الحديثة والمعاصرة) , و قد كان من الذين دافعوا عن هذا الجانب رائد الدراسات الحجاجية في الفترة الحديثة شاييم بيرلمان (1912 – 1984) عندما حاول إبراز الأصول الأرسطية لنظريته الحجاجية ، منتقدا التحريف الذي مارسه المنطق المعاصر في نظره على تراث أرسطو المنطقي ، حيث تم تضخيم جوانب في هذا التراث على حساب جوانب أخرى .

فالثقافة اليونانية كانت ثقافة حجاجية في المقام الأول , حيث تقدم لنا المحاورات السقراطية فكرة واضحة عن مدى حضور الجدال والممارسة الحجاجية في المجتمع الأثيني القديم (ساحة الأغورا) وهي ممارسات ساعد في ازدهارها النظام السياسي آنذاك الذي كان يسمح تقريبا بمناقشة كل شيء .

ويمثل التراث الأرسطي نموذجا تأسيسيا في حقل الحجاج , ولذلك فهو من ابرز النظريات الحجاجية ليس فقط في الثقافة اليونانية القديمة بل في تاريخ نظريات الحجاج بوجه عام .

أما ثقافة العصور الوسطى التي عرفت هيمنة المسائل الدينية , فقد كانت أيضا فضاء ازدهرت فيه الممارسات الحجاجية التي نجدها في : الردود على أصحاب المذاهب و الديانات المخالفة و على أصحاب البدع والشبهات , كما نجدها في الثقافة الإسلامية حاضرة بقوة في علم الكلام عند المسلمين الذي هو بالتعريف الخلدوني علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية .

في هذا السياق , تجدر الإشارة إلى أن القران الكريم – الذي هو وثيقة التأسيس الأولى للثقافة الإسلامية – يعرض علينا أساليب حجاجية شكلت النواة الأولى للنظر العقلي في هذه الثقافة , و يدعو إلى توظيف الحجاج في التأسيس للإيمان (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ...) ويقدم لنا (حوار الأنبياء مع أقوامهم , حوار الملائكة مع الله , ...الخ) .

أما بخصوص الفترة الحديثة فينبغي أن نشير إلى موقف بيرلمان Perlman في هذا الصدد , حيث كان يرى صاحب " المصنف في الحجاج " traité de l’argumentation ; أن الفلسفة الحديثة خضعت لتأثير سلبي ومؤسف , مارسته النزعة الديكارتية – ذات الطموح الرياضي العلمي (البداهة والوضوح – نموذج اليقين الرياضي) , على الثقافة الغربية الحديثة بوجه عام , ولهذا كان الشرط الأول في نظره هو التحرر من هيمنة النزعة الديكارتية كثقافة فلسفية سائدة على الموقف من الحجاج .

ومع ذلك يمكننا القول إن الفترة الحديثة و المعاصرة تمثل ما يمكن ان نسميه بفترة إعادة بعث الحجاج وترسيخه كمبحث نظري خاص (بيرلمان – البلاغة الجديدة) , تمليه طبيعة هذه

الفترة التي تزدحم بأصناف متعددة من الخطابات (الاعلام , السياسة , الدين , الإشهار ....الخ) وما تعرفه من ثورة معلوماتية و تواصلية كبيرة .

المحاضرة الثالثة

الحجاج عند أفلاطون

لفهم موقف أفلاطون من الحجاج والخطابة بوجه عام ينبغي استحضار السياق المعرفي و السياسي للمجتمع اليوناني في عصره , إن تفنيد الأطروحات السفسطائية يكاد يشكل المفتاح الرئيسي للوقوف على خصوصية الرؤية الأفلاطونية للحجاج , رغم أن هذا النقد كان في نظره تمهيدا لمشروع حجاجي يحترم الضوابط المعرفية و القيمية لممارسة الجدل الفلسفي الحق .

بداية يفرق أفلاطون بين الحجاج السفسطائي والحجاج الفلسفي الحق (الجدل السقراطي) ويمكن إجمالا تلخيص موقفه فيما يلي :

– يندرج موقف أفلاطون في سياق ضرورة حماية الفلسفة (المعرفة) والمدينة (السياسة) من الخطابة السفسطائية , " فبالتعليم كان السفسطائيون ينشرون بأثينا نوعا من ممارسة الحجاج , وتصورا لوجه الاضطلاع بالسياسة , و مثّل ذلك أكبر خطر بالنسبة إلى أفلاطون , و هو الذي ما انفك يفكر في فلسفته في مسالك تنشئة المواطن وبناء المدينة , وهكذا فوراء الصراع في مبادئ ممارسة القول الحجاجي بين الفيلسوف والسفسطائي , صراع في تصور القول وممارسة السياسة "

(هشام الريفي – اهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية – ص 61-62) .

– يرتكز الحجاج السفسطائي حسب أفلاطون على أمرين:

1- النسبية المعرفية و القيمية .

2 – الفهم الأداتي للغة (إمكانية إثبات كل الآراء والتحرر من شرط تحديد الموضوع) .

وبالتالي فهو قول لا يرقى إلى مصاف الجدل ولا يحترم شروطه , ولهذا فهو لا يصمد أمام القول السقراطي الذي يعتبره أفلاطون نموذجا للجدل الفلسفي .

إن استحالة وجود خطاب يمتلك الحقيقة لا يجعل من اللغة فضاء لبناء المعرفة ، بل ميدانا للتعامل بين الإنسان والإنسان , وبتحرير اللغة من هاجس الحقيقة (غير الموجودة موضوعيا) تصبح الغاية من الخطاب هي النجاعة و التأثير و بلوغ المقاصد المحددة سلفا , وهذا يؤدي حسب صاحب الجمهورية إلى الوقوع في حالة يمكن فيها مناصرة القضية ونقيضها بحسب السياق والمقاصد والمنافع و اللذات ,

فالحجاج السفسطائي يرتد حسب أفلاطون إلى نوع من التملق **une flatterie** , الذي لا ينطلي إلا على الحشود الجاهلة غير المؤهلة ثقافيا و فكريا , فهو إذا دققنا النظر دعوة ضمنية إلى ترسيخ الجهل وتعميمه في أوساط المجتمع كشرط ضروري لرواج الصنعة السفسطائية , وذلك لأنه يسمح للخطيب (السفسطائي) بالحديث عن أي موضوع , طالما أن العبرة ليست في طبيعة هذا الموضوع بقدر ما هي في طريقة تناولنا له خطابيا . (أي النجاعة و الاقناع المتملق للعواطف والاهواء و المتع في مقابل الحقيقة) .

والخطورة الأكبر في هذا القول السفسطائي حسب أفلاطون تكمن في انه لا ينحصر في الخطابة فحسب , وإنما هو قول زئبقي يمكنه أن يتسلل إلى فضاءات و أجناس أخرى , وهذا بسبب تحرر الخطابة السفسطائية من شرط تحديد الموضوع كما رأينا , ومن مخاطر هذا القول انه يهدف إلى الإقناع بالاعتماد على ما يوافق لذة المستمع .

إن المنهج الأفلاطوني في حقيقته منهج تربوي , ولهذا فهو يتعارض مع النسبية المعرفية و القيمية في الحجاج السفسطائي , وذلك لأنه يهدف إلى بناء المواطن , فأفلاطون من أجل إنقاذ فكرة الحقيقة رفعها فلسفيا فوق العالم المحسوس و جعلها موجودة في ذاتها (مثل) , لا تصل إليها الخطابة السفسطائية المتلاعبة باللغة والحقائق والقيم .

يرى أفلاطون أن الحجاج السفسطائي محكوم بثنائية **الظن** في مقابل **العلم** ، و**اللذة** في مقابل **الخير** , و يذهب كثير من الباحثين إلى أن المسحة النقدية الطاغية على موقف أفلاطون من الحجاج تبرز انه لم يؤسس لنظرية حجاجية كاملة . بل دعا إلى ما يشبه المشروع الحجاجي . ويقوم هذا المشروع على ثلاثية (الحق ، الخير ، الجمال) ، للوصول إلى نوع من الخطابة

الأخلاقية ذات الأساس المعرفي (العلم) , هذه الخطابة التي تليق بمقام الفيلسوف و التي يمكنها إقناع الآلهة أنفسهم حسبه .

و يشترط أفلاطون في الحجاج شرطين 1 – : معرفة المتكلم الحقيقة لا الظن .

2 – تنظيم الخطاب بشكل يراعي تناسب أجزائه .

و الخطابة في نظره ليست إقناعا بأي شيء ولكنها **فن قيادة النفوس** , وهذا يقتضي **معرفة عميقة** بطبيعة النفس وقواها , لا يمتلكها الخطيب السفسطائي الذي يختصر الوجود كله في سلطة القول المنمق فقط , ومن هنا فان الخطابة أو الحجاج بالنسبة لأفلاطون يجب ان تصدر عن موقف معرفي (**الحق/ الظن**) وأخلاقي (**الخير/ اللذة**) وسياسي (**العدل/ الأهواء**) .

إن المعارضة بين (الظن / العلم) التي ينطلق منها أفلاطون في رفض الخطابة السفسطائية ستكون كما سنرى من النقاط الخلافية بينه وبين تلميذه أرسطو , الذي يرى بان الحجاج لا يمكن التفكير فيه إلا فيما هو احتمالي و غير قطعي **Le vraisemblable** .

لقد كان موقف أفلاطون من الحجاج في العموم موقفا نقديا , و مع ذلك فقد كان يرى بأن منهج الفلسفة الحق هو المنهج الجدلي الذي مارسه سقراط و الذي لم يحترم السفسطائيون شروطه و قواعده فجعلوا من الخطابة وسيلة للتكسب وطريقة لتملق عواطف الجماهير دون احترام للحقيقة , فهدّدوا ليس فقط المعرفة الحقة بل الوجود السياسي للمدينة في حد ذاتها .

المحاضرة الرابعة

نظرية الحجاج عند أرسطو

يختلف موقف أرسطو عن موقف أفلاطون من طبيعة الحجاج في أن أرسطو ينطلق من رفض **الحمولة الأخلاقية والمعرفية** التي حكمت موقف أستاذه من الحجاج , فهو يتناول الحجاج منهجيا ويحاول تنظيمه وتصنيفه نظريا بعيدا عن الاعتبارات القيمية .

غير أن هذا الرفض لا يعني أن أرسطو كان موافقا لأساليب الخطابة السفسطائية التي هاجمها أستاذه , فهو انتقدهم أيضا ولكن من منظور مختلف عن أستاذه , لأنهم حسبه " كانوا يقدمون لتلاميذهم نصوصا جاهزة يطلبون منهم استظهارها بحسب الحاجة .... و قد كانوا يتصورون أن التربية تتمثل في تعليم نتائج الصناعة لا إكساب الصناعة ...فمنهجهم في تعليم القول هو منهج استظهار و ترديد و في ذلك ثبات وتعطيل للحركة , أما المنهج الذي صدر عنه أرسطو في كتابي " المواضع " و" الخطابة " فمداره إكساب الملكة و بناء القول عموما " **(أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية – ص176)** .

إن أفلاطون أولا حين هاجم الخطابة لأنها تقوم على الظن لا العلم ، يكون حسب أرسطو قد قوّض المشروعية المعرفية للحجاج , الذي لا يمكن أن يشتغل بطبيعته إلا في مجال ما هو ممكن و ظني و احتمالي , وثانيا فان أفلاطون حين ربط البلاغة بمجال القيم ، يكون قد ادخل عناصر غريبة على البناء النظري للحجاج كفرع من فروع المعرفة الاستدلالية له استخداماته وتطبيقاته الخاصة .

إن الخطابة أو البلاغة حسب أرسطو ينبغي أن تكون محايدة من الناحية القيمية يمكن أن يمارسها كل واحد بمقتضى ما يريده منها , ولهذا فهي تستدعي عملية فهم واع **وتنظيم نظري محكم** , لا مجرد رفض مبدئي مسبق , فهي لا دخل لها في الخير أو الشر , و لا يجوز لنا أن نربط الخطاب بالحقيقة القطعية لان في هذا جهلا بطبيعة الميادين التي يشتغل عليها الجدل والحجاج و الخطابة .

يقول جوتييه و بروتون في كتابهما " تاريخ نظريات الحجاج " (إن البلاغة عند أرسطو هي عبارة عن أداة , وهذا يعني إمكانية استخدامها للخير أو للشر و للعدل أو للظلم , ومن جهة أخرى , جعل ارسطو البلاغة تقنية حجاجية لما هو قابل للصواب وليس للحقيقة , و الفرق كبير جدا , هذا الفصل المزدوج عن الأخلاق وعن الحقيقة حرّر البلاغة وسمح لها أن تتطور كتقنية ذات مشروعية في المناظرات داخل الفضاء العام للمدينة) **(تاريخ نظريات الحجاج – ص 28)** .

يقيم أرسطو نوعا من المماثلة بين الجدل والبلاغة من حيث أنهما يختلفان عن العلم ، و الجدل عنده منهج معرفي والخطابة طريقة الإقناع , وان كان اغلب الدارسين يفرقون بينهما في النسق الأرسطي من حيث " أن صناعة القياس الجدلي لها مقدمات خاصة (المشهورات) , أما الخطابي فيتألف من مقدمات (مظنونات ومقبولات) " . **(قواعد التفكير المنطقي – مجموعة من الباحثين – القاهرة – ص 101)**

إن الاهتمام بالحجاج عند أرسطو يندرج في صلب اهتماماته المنطقية , و هناك من الباحثين من يرى بان أول ما ألف أرسطو في **الاورغانون** هو كتاب الجدل (المواضع) , وهذا ما سيتردد لاحقا مع كل من برلمان و غريز Grise اللذين دافعا بقوة عن الأصول الأرسطية لمواقفهم ونظرياتهم الحجاجية , فأرسطو حسبهما ليس فقط أب المنطق الصوري بل هو مؤسس الدرس الحجاجي أيضا و ذلك لأنه دافع عن قيمة الحجاج والبلاغة في الميادين التي لا يمكن الوصول فيها إلى معرفة قطعية ضرورية .

إن مشكلة الحجاج في تراث أرسطو نجدها في ثلاثة كتب هي : (الجدل) أو المواضع و(الخطابة) أو البلاغة و (الرد على السفسطائيين) .

وهناك علاقة وظيفية في التصور الأرسطي بين الجدل والخطابة ، فالجدل هو الاستدلال الاحتمالي والخطابة هي إحدى تطبيقاته , لكنها تنفتح على عوامل أخرى مثل شخصية الخطيب وطبيعة الموضوع ومشاعر المستمع , (هناك أيضا اختلاف بينهما في طبيعة المقدمات)

ويحدد أرسطو في نص مشهور الوظائف التي يسندها للجدل (الحجاج) وهي :

1- التمرين العقلي .

2- العلاقات مع الغير.

3 - معالجة المعارف ذات الطبيعة الفلسفية .

4 - مناقشة مبادئ العلوم . (**le vocabulaire d'Aristote -Pierre Pellegrin**)

ويعتقد أرسطو أن من سبقوه أخطأوا عندما ادخلوا على البلاغة اعتبارات ليست مسؤولة عنها (أفلاطون و نقد الخطابة) , فالبلاغة هي وسيلة أو طريقة في الاستدلال لها استعمالاتها (السياسية والقانونية) , فهي صنف أو نمط من الجدل .

لكن مع أرسطو تتحول الخطابة أو البلاغة من ميدان العاطفة إلى ميدان العقل أو بعبارة أخرى من الاهتمام بجماليات اللغة إلى التركيز على طرق الإقناع ومع أرسطو أيضا نجد أننا أمام نظرية محكمة البناء وليس تعريفا إجماليا للبلاغة , فالبلاغة حسبه هي " القدرة على الكشف بتفكر في كل حالة عما يمكن أن يكون مقنعا فيها " **(تاريخ نظريات الحجاج – ص 29)** .

إن جهود أرسطو في ميدان الحجاج تكشف عن روح تنظيمية منهجية خاصة , فهو حاول إذا صحت العبارة عقلنة البلاغة وبناءها بشكل نظري من اجل تحويلها من ميدان العاطفة إلى العقل , دون أن يلغي الجوانب المتعلقة بشخصية الخطيب وكفاءته وميول المتلقي في تحقيق الغاية الاقناعية .

في هذا السياق , يقترح أرسطو ثلاثة أسس أو جوانب تتحكم في نجاعة الخطابة وهي : شخصية الخطيب أو الايتوس Ethos ; محتوى الخطاب أو اللوغوس ; Logos , مشاعر المتلقي الباتوس Pathos ; و تضافر هذه العناصر أو العوامل يساعد في تحقيق الغرض من البلاغة وهو الإقناع , غير أن أرسطو يعطي الأولوية في هذا السياق إلى جانب الموضوع نظرا لغلبة الطابع العقلي على نظريته في الحجاج .

وتنقسم الخطابة حسبه إلى ثلاثة ضروب وأنواع هي (الاستدلالي – القضائي – الاستشاري) لكل منها طبيعته وشروط نجاعته والبناء الحجاجي المناسب له والقيم التي تتواءم معه , بالإضافة إلى زمنه وشكله وموضوعه وطبيعة و نوع الخطيب الذي يقوم به أو يلقيه .

أما آليات الحجاج وتقنياته فترتد حسبه إلى ثلاثة أصناف هي : الأمثلة والأقيسة المضمرة والإسهاب وكلها تعالج حسب أرسطو ما هو قابل للصواب وليس ما هو يقيني .

مراحل بناء القول الحجاجي عند أرسطو :

بالرجوع إلى كتابي " المواضع Topiques" وكتاب " الخطابة Rhétorique " يمكن الوصول الى تحديد أربع مراحل في إنشاء القول الحجاجي عند أرسطو هي :

1 – مرحلة البحث عن **مواد الحجاج** (Eurésis) ويسميها عبد الرحمان بدوي بمرحلة **مصادر الأدلة.** **(الخطابة – ترجمة : عبد الرحمان بدوي – ص 193) .**

2 – مرحلة ترتيب أجزاء القول (Taxis)

3 – مرحلة الأسلوب (Lexis)

4 – مرحلة الإلقاء .

وتعتبر المرحلة الأولى أهم هذه المراحل لأنها حسب أرسطو تعبر عن حركة الفكر في البحث عن الحجج المناسبة للموضوع والتي تختلف باختلاف طبيعة الجنس الحجاجي .

لقد كان للحجاج دور معرفي هام في النسق الأرسطي يتعلق بميدان الممكن والمحتمل , أما عن مصدر الصورة التي سادت في تاريخ المنطق و التي كرست نوعا من التعارض والتنافر بين المنطق من جهة والجدل والخطابة من جهة أخرى , فان المسؤول عنها ليس هو الأرسطية بل

تاريخ الأرسطية أي (مظاهر التضخيم والاجتزاء والفصل والتوظيف الظرفي التي خضعت لها فلسفة أرسطو في تاريخ الثقافة الإنسانية) , وهذا ما دفع رواد النظريات الحجاجية المعاصرة إلى إعادة إحياء الدراسات الحجاجية والبلاغية وربطها بما يرون انه مصدرها اليوناني الأرسطي الذي تجاهلته النزعة الصورانية الرياضية التي استحوذت على البحث في الاستدلال وطبيعته .

المحاضرة الخامسة

البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان .

تمثل هذه النظرية ابرز نظريات الحجاج في الفترة المعاصرة وتعرف بالبلاغة الجديدة , لبيرلمان (1912 – 1984) وهي محاولة لإعادة بعث الدرس الحجاجي والتأسيس له في الثقافة الفلسفية والمنطقية والقانونية المعاصرة بإبراز مشروعيته النظرية وطابعه الإجرائي الذي يجعله اقرب الى الاستثمار في الحقول الانسانية والاجتماعية . يعرف بيرلمان الحجاج بانه " دراسة تقنيات الخطاب التي تؤدي بالاذهان الى التسليم بما يعرض عليها من اطروحات او تزيد من درجة ذلك التسليم " . يتعلق الامر اذن :

1- بخطاب طبيعي وليس نظام رمزي صوري (اختلاف خصائص اللغتين)

2- ان الحجاج فعل تواصلي حواري يقوم على التفاعل والمقام والسياق والجمهور .

3- ان هناك تدرج في الفعل الحجاجي من حيث القوة والضعف والملاءمة على عكس الحقيقة البرهانية القطعية الصارمة .

يذهب بيرلمان الى ان الاختلاف بين الحجاج والبرهنة لا يعني ان الحجاج يخلو من أي قيمة عقلية فهو اذا كان غير موضوعي فهذا لا يعني انه ذاتي . ويقوم نظريته الحجاجية على الدفاع عن نموذج معقولية خاص في الحجاج ضد المعقولية الصورية الخالصة .

ان بيرلمان 1912 – 1984 صاحب نظرية خاصة في الحجاج l'argumentation لها تأثيرها الواضح على الدرس الحجاجي في حقول معرفية متعددة تحاول تحيين وتكييف المنطق

الاستدلالي مع خصوصية الظاهرة الإنسانية والحضارية المعاصرة بشكل عام , وتحرير نظرية الاستدلال من الرؤية الحسابية البرهانية الصارمة التي تجاهلت في نظره مستويات الخطاب الاقناعي التي تتراوح بين الإلزام والاستمالة والإقناع . حيث يقول بيرلمان " **يمكن للاستدلال ان يكون مقنعا دون ان يكون حسابا كما يمكن ان يكون دقيقا دون ان يكون علما** "

يوجه عام يمكننا ان نوجز الخطوط العامة في نظرية الحجاج البلاغي عند شاييم بيرلمان في هذه العناصر :

1 – الدعوة الى اعادة تثمين الجانب الاقناعي في البلاغة (البلاغة القديمة) وتحريرها من النظرة الاتهامية التي تربطها بالتلاعب اللفظي والجمالية الأسلوبية على حساب سلامة الأفكار وقوة البناء الحجاجي .

2 – نقد النموذج المعرفي المتولد من تأثير الديكارتية le cartésianisme على الثقافة الغربية وهو نموذج قائم على معايير الوضوح والبداهة العقلية الرياضية مما يؤدي الى التضحية بقيمة الحجاج ومشروعيته المعرفية والفلسفية بوصفه خطابا في درجات المقبولة يتجاوز ثنائيية الصدق والكذب . (يستعمل بيرلمان نصوص من المقال في المنهج discours de la méthode لابراز التعارض بين الديكارتية والحجاج) .

3 – الدفاع عن الأصول الأرسطية لنظرية الحجاج البلاغي عند بيرلمان وبالتالي رفض القراءة الانتقائية التي مورست من طرف الصورانية المنطقية على تاريخ المنطق الارسطي وذلك بالعودة الى خصوصية موقف ارسطو من الجدل والبلاغة والحجاج باعتبارها نماذج استدلالية مشروعة وذلك في كتب الاورغانون وخاصة : كتاب المواضع topic والخطابة والسفسطة . ومن هنا الدعوة إلى تحرير الارسطية من تاريخ الفهوم والقراءات الظرفية للارسطية التي ادت حسب بيرلمان الى تضخيم جوانب فيها على حساب جوانب اخرى .

4 – إعادة تثمين قيمة اللغة الطبيعية ومستوياتها بين الحقيقة والمجاز واستحضار البعد التواصلي والقصدية الخطابية كمحددات جوهرية للتعامل مع هذه اللغة والكشف عن

خصوصيتها التي لا يمكن الاستعاضة عنها بنظام من الاشارات الصامتة ذات الدلالة الواحدة , فاللغة الطبيعية بخصائصها مثل : التكرار والاستعارة والكنايات ليست مجرد اضافات جمالية ولكنها ذات قيمة حجاجية اقناعية .

5 – المقابلة بين النموذج المنطقي الرياضي والنموذج القانوني القضائي الذي يقوم على آليات لها علاقة بالفلسفة والاستدلال الطبيعي , مع انها غير معروفة في ميدان المنطق الرمزي مثل : بناء الموضوع – الاهتمام بالمضامين وتبرير الحجاج بالتفكير في المفاهيم وتحويلها دلاليا , فالاستدلال في ميدان القانون والقضاء هو اقرب الى سيرورة التفكير الطبيعي والمحاجة التي هي استدلال اقناعي يتناول مشاكل اجتماعية ونفسية في اطار قيمي ومن هنا فهو يقوم على التبرير وبناء الدليل la charge de preuve

6– استعراض أنواع الحجج والتقنيات الحجاجية عند بيرلمان كما شرحها في كتابه : مصنف في الحجاج – Traité de l’argumentation حيث تنقسم التقنيات الحجاجية في نظر بيرلمان الى نوعين :

ا – **طرق الربط أو الوصل** . Les Procédés de liaisons

وهي الآليات التي تقرب العناصر المتباعدة بهدف الإثبات والتأييد والدعم .

ب – **طرق الفصل** : Les Procédés de dissociation

تهدف إلى تفكيك العلاقات الموجودة بين العناصر وتستخدم هذه التقنيات في الدحض والتفنيد .

تختلف منطلقات الحجاج باختلاف مرجعية كل طرف وأهدافه وسياقه ومنظومته الفكرية وافتراضاته , ودور ممارس الحجاج هو تفعيل وانتقاء المنطلقات بحسب المقام وطبيعة المتلقي .

لكن بيرلمان PERLEMAN يدعو في مقال مشهور بعنوان : Logique formelle et logique informelle الى ما يسميه ب : العدالة الصورية la justice formelle حيث يقول

"" ان كل هذه التصورات تسلم بقاعدة (ا لعدل الصوري) la justice formelle التي توجب التعامل بالطريقة نفسها مع كل الحالات التي تكون في أساسها متماثلة . ان الذي يكون قد اعترف بقيمة حجاج ما يتوجب عليه ان يعترف بقيمة هذا الحجاج نفسه في حالة تكون في أساسها مماثلة للحالة الأولى . وهذه القاعدة هي ما يبرر (العمل بالحالات السابقة conformité à des précédents) ليس فقط في ميدان القانون ولكن في كل الحقول المعرفية الأخرى . وهذه القاعدة نفسها هي التي تسمح لنا ببناء منهجية خاصة بكل حقل معرفي "" .

ان الحجاج في نظر شاييم بيرلمان هو منهج الفيلسوف الذي يفكر في مشاكله الملموسة وفق معطيات ممكنة ترفض القوالب الموضوعية الصارمة **و يبني مفاهيمه الخاصة بطريقة تدرجية تجعله يمارس تفكيرا داخل المفاهيم** محاولا اثراء مضامينها او تعديلها او صياغة مفهوم جديد يختلف عن غيره من المفاهيم لان الشرط الاول في التفكير الفلسفي هو الحرية . يقول بيرلمان في نفس المقال : "" **ان الفلسفة باستنادها الى التقنيات الحجاجية تحاول ان تقدم رؤية معقولة للانسان في علاقته بالمجتمع والكون , وهذا ما يبدو لي انه غير قابل للاختزال في اي حساب ..... ذلك لان كل فلسفة هي في النهاية نتاج للحرية "" .**